Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصاحب شرطته ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما أمامه وخلفه، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرته وصدر كل مجلس جلسه إلا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء؛ وقدمه في دخول داره راكباً إلى أقصى مكان ينتهي إليه أحد من بني هاشم لأنه منهم وأعظمهم غناء عنهم، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه، وبابه الذي يدخل إليه منه وولاه خيوله في أقطار الأرض ومقدمته بحضرته، وقلده من الثغور ما قد علمتم بما أفرده في عهده إلى ما انفذه من أمره في جميع سلطانه وملكه من مشارق الأرض ومغاربها. وأين يأتي الوصف على ما فضله به وقدمه، وشرفه على الناس كافة؟ ولكنا نخطر بذكره ثم نكل السامعين إلى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة.

ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته: تولى غسله وتكفينه ومباشرته لجهازه إلى حفرته بيده، وقاسى من الغصص وبرحاء الحزن وادراء العبرة، واراقة الدمعة ما حال بينه وبين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه.

ثم يفرغ من ذلك كله ليتجه إلى المأمون فيذكر غيرته على الإسلام، وفضله على الرعية ويقف حائراً متسائلاً لا يدري ماذا يفعل، وكل أياديه تستوجب الشكر والثناء... وكان له في ذلك تفصيل جميل نقتبس منه هذه السطور:

«فيأيها الإمام المنصور المهدي الرشيد: حزت فضائل الآباء، واهتديت بهدي الأنبياء... أنشكرك عن الإسلام؟ فأنت القائم به، الداعي له والناصر لحقه، أم نشكرك عن الأمصار؟ فأنت المفتتح لمتنعها عنوة، والمتطول على أهلها بالرحمة، والمنعطف عليهم بحسن الفائدة بعدما هيجت منك سورة الغضب، فأطفأت نارها، وأخمدت لهبها، وعدت غلى من سفه وأضاع حظه. أم نشكرك على المساجد؟ فأنت الذي أسستها على التقوى، وعمرتها بتلاوة القرآن، وطهرت المنابر وركبتها، تعلوها صائماً، وتنطق عليها صادقاً، وتدعو إلى الرشد عليها ناصحاً، وتختم القرآن قبل أن تبدأها محسناً، وتتلو من قوارعه ما تصيخ له الأسماع، وتلين به القلوب. أم نشكرك على البيت العتيق، والركن والمقام والحجر وزمزم ومشاعر الحج، وأنت ذببت عنها؛ وأعدت إليها